



## تأصيل وتعريف

### جذور التراث:

- إحدى إصدارات النادي الأدبي الثقافى بجدة.
- فضاء معرفى يهتم بالتراث فى كل مجالاته وآفاقه.
- تصدر بشكل دوري «كل أربعة أشهر» إن شاء الله.

### جذور التراث:

- تسهم فى استنطاق تراثنا الخالد، والانفتاح على المناهج والنظريات الحديثة.
- تفتح على جميع الحقول المعرفية والفكرية والعلمية والأدبية والتاريخية واللغوية فى ثقافتنا وحضارتنا العربية والإسلامية.
- تعرف بالكتب والرسائل العلمية المختصة بالتراث «عروض ومراجعات».
- تقف على رموز الثقافة المعنيين بالتراث من المعاصرين وقفات تحية واعتبار.

### جذور التراث:

- ترجو من كتابها أن تكون الدراسات والأبحاث متعلقة بالتراث ومكتوبة باللغة العربية. ومرفومة على الحاسب الآلى «على شكل أقراص مضغوطة CD» أو ترسل من خلال موقع النادي الإلكتروني:  
Judhur@adabijeddah com
- يحق لهيئة التحرير اختصار الموضوعات المطولة، وتعديل ما يمكن تعديله فى نص الدراسات والبحوث التي تصل إلى المجلة.
- أن لا تكون الدراسات والأبحاث منشورة من قبل أو مقدمة للنشر فى جهة أخرى.

## الهيئة الاستشارية

- \* أ. د. محمد خضر عريف  
أستاذ علم اللغة بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة
- \* أ. د. عبدالرزاق فرّاج الصاعدي  
أستاذ علم اللغة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة
- \* أ. د. صالح بن سعيد الزهراني  
أستاذ البلاغة والنقد في جامعة أم القرى
- \* أ. د. محمود توفيق محمد سعد  
أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر
- \* أ. د. رابح عبدالرحمن أحمد أبو معزة  
أستاذ النحو واللسانيات بجامعة محمد خيضر بسكرة في الجزائر
- \* أ. د. مراد عبدالرحمن مبروك  
أستاذ النقد الأدبي والنظرية بجامعة بني سويف في مصر
- \* أ. د. بلقاسم عبدالسلام اليوبي  
أستاذ اللسانيات بجامعة الملك عبدالعزيز
- \* أ. د. محمد أحمد أبو نبوت  
أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

## محتويات العدد

# جذور

جذور، العدد 39، ربيع الأول 1436هـ - يناير 2015

- \* تأصيل وتعريف .....
- \* بنية السرد في القصة القرآنية .....
- \* التناص النقدي في مقامات بديع الزمان  
الهمذاني .....
- \* ثراء الخطاب النقدي وتنوعه في النص  
الرحلي لابن رشيد السبتي .....
- \* جمالية الوصية في التراث العربي الإسلامي ....
- \* علاقة مائة المعاني لابن الشحنة بتلخيص  
المفتاح للقزويني .....
- \* ما لازم الأفراد في النحو العربي .....
- \* بنية سمات المصدر الموصول في بنية  
الصلة المقيدة .....
- \* كتاب (محاولات في النقد) لمحمد محمد علي ....
- \* في جماليات الأدب الإسلامي .....

### العنوان

النادي الأدبي الثقافي بجدة  
الإدارة: حي الشاطئ  
جدة ص.ب (5919)  
فاكسميلي: 6066695  
هاتف: 6066364-6066-122

## JUTHOOR

Literary & Cultural  
Club Jeddah  
P.O. Box: 5919  
Jeddah 21432  
FAX : 6066695  
Tel : 6066122 - 6066364  
www. adabijeddah.com

## المشاركون

### الإشراف

عبدالله عويقل السلمي

4 .....

15 ..... حميد سمير

\* \* \*

43 ..... مولاي يوسف الإدريسي

### رئيس التحرير

عبدالرحمن رجاء الله السلمي

75 ..... مولاي علي سليمان

99 ..... عبدالفضيل إدراوي

\* \* \*

137 ... محمد بن عبدالعزيز بن عمر نصيف

183 ..... محمد يوسف الحريري

### مدير التحرير

صالح عياد الحجوري

249 ..... عبدالحق العمري

265 ..... أبو صباح علي الطيب

295 .... عادل إبراهيم العدل عبدالله



## تقديم وتأصيل

تتمحور موضوعات هذا العدد من مجلة (جذور) حول مفاهيم أدبية وبلاغية ونحوية متعددة، تعالج قضايا بنية السرد في القصة القرآنية، والتناسق النقدي في مقدمات بديع الزمان الهمذاني، وثناء الخطاب النقدي وتنوعه في النص الرحلي لابن رشيد السبتي (ت271)، وجمالية الوصية في التراث العربي الإسلامي من خلال وصية علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لابنه الحسن، رضي الله عنه، وعلاقة مائة المعاني لابن الشحنة بتلخيص المفتاح للقزويني دراسة في تأريخ البلاغة، ودراسة إحصائية تحليلية لما لزم الأفراد في النحو العربي، وبنية المصدر الموصول وبنية الصلة المقيدة.

كما يتضمن العدد دراستين تحليليتين الأولى لكتاب: «محاولات في النقد» للدكتور: محمد محمد علي، والثانية لكتاب: «في جماليات الأدب الإسلامي: النموذج والنظرية» للدكتور سعد أبو الرضا.

وهي مواضيع تمس جوانب نقدية وبلاغية ونحوية، كان لها أثر واسع على اهتمام النقاد والأدباء لصلتها المباشرة بالرؤية والمنهج في تناول الخطابين اللغوي والأدبي وتحليله وتأويله. إنها مفاهيم وأدوات يستنطق بها الدارس مكنونات النصوص فهماً لها، واستقراء لمضامينها، وتأويلاً لثوابتها ومتغيراتها الدلالية. فالرؤية والمنهج أمران متلازمان في الخطاب الأدبي واللغوي عموماً.

وارتباط هذه المفاهيم بالخطاب العربي التراثي الثري منه والشعري مهم جداً، يسعفنا في معرفة أشكال التلاقي بين النصوص، واستفادة بعضها من بعض، إما من أجل إعادة الإنتاج، أو لتوظيف بعض مداخل النقد الحديث. ومن أبرز هذه المداخل والأدوات التحليلية النقدية نجد التناص والتحليل السردى، والتحليل اللساني الحديث.

وأما استفادة الدرس اللغوي العربي من المناهج والرؤى الحديثة، فيتجلى على الخصوص في محاولات إعادة النظر في بعض أبواب النحو والبلاغة ومسائلهما، وفي محاولات تطبيق بعض المذاهب اللسانية الحديثة في الدراسات اللغوية العربية وتحليلها.

تتناول أبحاث هذا العدد جوانب من هذه المفاهيم وتطبيقاتها وفق رؤى ومناهج علمية في مجالي الأدب والبلاغة واللغة.

يدرس البحث الأول للدكتور: حميد سمير، من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى «بنية السرد في القصة القرآنية» حيث يرى أن القصص القرآني ألهم الأدياء فكان سبباً مباشراً في نشأة جنس الحكى أو القصص وتطوره... وأن السرد يتمظهر في الخبر الأدبي وفي النوادر والحكايات والأمثال والرحلة، وهو الجنس الأدبي الذي يحمل بصمات وملامح إسلامية هي الأكثر تأثراً بالقصص القرآني التي اقترنت بأحداث اجتماعية واقعية وحقيقية. وهو ما جعل العديد من الأدياء يتخذونها قاعدة ممتدة عبر الزمن نظراً لسلطانها القوي.

فيما يعالج البحث الثاني للدكتور مولاي يوسف الإدريسي، من كلية الآداب، بجامعة القاضي عياض، بمراكش. موضوع: «التناص النقدي

في مقدمات بديع الزمان الهمذاني»، حيث يشير إلى قيمة «التناص» باعتباره موضوعاً يتبوأ مكانة هامة في حقل الممارسة النقدية، وأداة إجرائية لكشف خصائص النص الأدبي، وإبراز بنياته الناظمة التي تحقق فاعليته. وإذا كان النص في جوهره نتاج تفاعل صاحبه مع واقعه الاجتماعي، وتحاوره مع غيره من النصوص؛ فإن التناص رؤية نظرية ومنهجية مغايرة في قراءة النصوص وتأويلها. وتتمثل أهمية مقامات الهمذاني في كونها ترتبط بالنسيج الثقافي العربي القديم من شعر ولغة ونقد وبلاغة وحكي. والنظر في كيفية تفاعلها مع هذه الخطابات وغيرها يعكس أنماطها وبلورة كينونتها النصية. وبذلك فهو يقف عند علاقة مقامات الهمذاني بالخطابات اللغوية - المفهومة والمتخيلة - المعاصرة له والسابقة عليه، وينظر في طرائق تفاعلها وتعالقها أسلوباً وتعبيراً ومضامين.

ويناقد البحث الثالث للدكتور مولاي علي سليمان من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان المولى سليمان بني ملال، مسألة «ثراء الخطاب النقدي وتنوعه في النص الرحلي لابن رشيد السبتي (ت 271)» مشيراً إلى أن الرحلة تعتبر واحدة من المصادر الجامعة للمعرفة، وخاصة تلك التي يكون الدافع إليها طلب العلم ولقاء المشايخ، إذ بذلك تكتمل شخصية الرحالة، لما تفصح له لصاحبها من مخالطة الرجال بكثرة التجوال؛ ومؤكداً على ما للرحلة الحجية من خصوصية، لما لهذه الوجهة الشريفة من مكانة وقدسية عند العامة بله الخاصة، وخاصة الخاصة، والتي تغنى بها العلماء، فذلك موطن التقائهم، وثمة تتلاقح أفكارهم وتنوع. وقد يسر الله لابن رشيد ذلك

الذي رحل من أجله، فكان كتابه: «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»، وهو خلاصة رحلة جمعت من الفوائد والفرائد خصوصاً ما تعلق بالشعر والنقد والأخلاق. فهو يهتم بنقد الشعر وبنقد الديني والاجتماعي والنقد الأخلاقي والسلوكي نظراً لكون الانحراف إنما يكثر عادة عند غياب الوازع الديني، أو عند سوء الفهم مع غياب القدوة الحسنة.

فيما يدرس البحث الرابع للدكتور: عبدالفضيل إدراوي، من كلية الآداب، بجامعة عبدالسعدي، بتطوان «تلازم البعدين البياني والترشيدي في جمالية الوصية في التراث العربي الإسلامي» من خلال وصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى ولده الحسن. فبعد أن أوضح أن الوصية من الأجناس التعبيرية ذات الحضور البين في التراث العربي الإسلامي؛ وأنها وُظِّفت من قبل السياسيين والفقهاء والشعراء والمتصوفة والبلاغيين وكتاب الأدب العام وغيرهم؛ وأنها خطاب مرن وراجح، ترد في صورة النص المتكامل ذي البنية المستقلة، متخذة الصيغة النثرية أو الشعرية أو المختلطة؛ وأنها قد ترتحل فتستدعي عنصراً مكوناً لأنماط قولية مغايرة، قريبة منها، كالخطبة والحكمة والمثل والرسالة والكتاب والموعظة، والخطاب الديني أو بعيدة عنها، كالخطاب التاريخي والسردى والسيرى، انتقل إلى تحليل الوصية وما تضمنته من توجيهات وإرشادات تخص العالم الحاضر والمستقبل الدنيا والدين بأسلوب بلاغي بديع.

ويحلل البحث الخامس للدكتور: محمد بن عبدالعزيز بن عمر نصيف، من الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة «علاقة مائة المعاني لابن الشحنة بتلخيص المفتاح للقرويني» في محاولة لتأسيس منهج

لدراسة في تأريخ البلاغة. فبعد أن عرف بالعالمين: جلال الدين القزويني، وابن الشحنة الحلبي، قدّم مقارنة بين متيهما في معالمهما الرئيسية خاصة ما يتعلق بقضايا تهمة المقدمة فيهما، وبمسائل تخص علوم البلاغة؛ المعاني، والبيان، والبديع. كما وردت في المتين، خلص إلى أن مائة المعاني تلخيص لكتاب القزويني، حُذفت منه الأمثلة والنقاشات والاعتراضات ونحوها، مع حذف بعض الأغراض والتقسيمات حرساً على الاختصار المناسب للمبتدئ في دراسة هذا العلم. كما أشار إلى أن الجهود المسحّية التي بُدلت لتأريخ هذا العلم سواء كانت على شكل معاجم للمصطلحات، أو في شكل تأريخ للفن، بها قصور ظاهر، وتلافيه متيسر الآن، ومن ثم تظهر الحاجة في التأريخ للبلاغة إلى مزيد من الأبحاث والدراسات الدقيقة التي تكشف كثيراً من المسائل التي مازالت غائبة عنا، سواء كان ذلك في تاريخ المصطلحات، أو ابتكار التقسيمات، أو العلاقات بين الكتب.

ويهتم البحث السادس للدكتور: محمد يوسف الحريري، من جامعة الملك عبدالعزيز، بجدة بـ «دراسة إحصائية تحليلية لما نزم الأفراد في النحو العربي» بادئاً بتعريف الأفراد، ومفهوم الأفراد عن اللغويين والنحويين، مبيناً أنواعه، ومستعرضاً بعض المسائل التي لزمتم الأفراد؛ من مثل الموصولات: من، وما، وذو، وأي، وإفراد ما فقد شرط التثنية والجمع، والأسماء الستة، والوصف المغني مرفوعه عن الخبر، وغيرها من مسائل النحو المتعلقة بالموضوع مع إيراد الأمثلة وتوضيحاتها.

ويدرس البحث السابع للدكتور: عبدالحق العمري، من كلية الآداب سايس بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، بفاس: «بنية سمات

المصدري الموصول في بنية الصلة المقيدة» ساعياً إلى توضيح سمات المصدر الموصول باعتباره مقولة وظيفية. عامداً إلى تحديد الموصولات في اللغة العربية ونوع الصلة، وموضحاً بنية سمات المصدر الموصول في اللغة العربية استناداً إلى البرنامج الأدنى المُتَبَنَّى في تشومسكي (1995 و1998 و1999 و2001)، قصد معرفة مختلف مستويات السمات وأنماطها وكيفية تفاعلها. وبعد أن عرض أنماط الموصولات ركز على الموصولات الحرة والموصولات المقيدة، سمات الموصول في بنية الصلة المقيدة في ضوء البرنامج الأدنى. وسمات المصدري الموصول في بنية الصلة المقيدة مثل الإعراب والتطابق.

أما البحثان الثامن والتاسع فيتعلقان بقراءة تحليلية في كتابين. القراءة الأولى للدكتور: أبو صباح علي الطيب، من جامعة القصيم، لكتاب: «محاولات في النقد» لصاحبه: محمد محمد علي. والبحث عبارة عن قراءة تحليلية عرّف فيه بالناقد السوداني: محمد محمد علي، وتناول فيه آراءه النقدية، معتبراً كتابه هذا من أوائل كتب النقد في السودان.

والقراءة الثانية للدكتور: عادل إبراهيم العدل عبد الله، لكتاب: «في جماليات الأدب الإسلامي: النموذج والنظرية» لصاحبه: سعد أبو الرضا، وهي عبارة عن عرض ورأي في الكتاب، حيث نوّه بالمؤلف ومؤلفه معتبراً إياه من أهم ما أُلّف في حقل الأدب الإسلامي، حيث ابتكر مصطلحات جديدة تضاف إلى معجم مصطلحات الأدب الإسلامي المعاصر، ومشيداً بما قدمه من نمط فريد لتحليل النصوص الأدبية على أساس منهجي شمولي ينظر في الشكل والمضمون في تحليله

النقدي، غير غافل عن علوم اللغة المعاصرة، واتجاهات النقد الأدبي العربي والغربي الحديث، فضلاً عن مناقشته لبعض القضايا النقدية المرتبطة بالأدب الإسلامي من مثل؛ الأدب الإسلامي والمذاهب الأدبية الوافدة، الأدب والأخلاق... وهو في تحليله هذا ينحو إلى صياغة جادة لنظرية الأدب الإسلامي.

وما من شك بأننا بحاجة إلى إعادة قراءة تراثنا اللغوي والأدبي ودراسته بعمق فكري ومنهج علمي؛ للاستفادة منه، والإفادة من أدوات البحث العلمي ومفاهيمه ومصطلحاته، خدمة له، وتوظيفاً لجواهره في خدمة قضايانا العصرية الثقافية والحضارية. وهو ما تنتظره مجلة (جذور) من المثقفين والباحثين ومن قرائها كافة، تعاوناً منهم جميعاً إحياءاً للتراث وخدمة للأمة ونهضة الفكرية والعلمية.

## هيئة التحرير



## ثراء الخطاب النقدي وتنوعه في النص الرحلي لابن رشيد السبتي: (ت 271) «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكة وطيبة»

مولاي علي سليمانى (\*)

### توطئة:

تعتبر الرحلة واحدة من المصادر الجامعة للمعرفة، وخاصة تلك التي يكون الدافع إليها طلب العلم ولقاء المشايخ، إذ بذلك تكتمل شخصية الرحالة وتستوي على سوقها، لما تفسحه لصاحبها من مخالطة الرجال بكثرة التجوال. وللرحلة الحجية خصوصيتها، لما لهذه الوجهة الشريفة من مكانة وقدسسية عند العامة بله الخاصة، وخاصة الخاصة والتي تغنى بها العلماء، فذلك موطن التقائهم، وثمة تتلاقح أفكارهم وتنوع، وقد يسر الله لابن رشيد ذلك الذي رحل من أجله، فكان كتابه «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكة وطيبة» خلاصة رحلة جمعت من الفوائد والفرائد ما سنسعى إلى الكشف عنه خصوصا ما تعلق بحسه النقدي.

### 1 - نقد الشعر:

سنورد في هذه الورقة البحثية مجموعة من الشواهد النقدية ضمنها الرحالة الجوال القوال ابن رشيد في كتابه «ملء العيبة» لنبين

(\*) أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال - المغرب.

أن الرجل سابق القدم في العلم بالأشعار وحفظها، متمكن اليد في امتلاك ناصية اللغة، له علم بالنقد وما يتصل به من علوم، مردفين تلك الشواهد بتعليقاته وآرائنا في الموضوع.

في ثانيا الجزء الخامس من الرحلة وجدنا ابن رشيد - وفي معرض حديثه عن دخوله المدينة وقضائه أدب التحية - يستدل بشعر للأديب الصوفي المعروف بابن السماط حيث يقول:

«وإذا أسأت تأدبي بحماكم عفا فإني غبت عن معقولي  
من ذا يرى حرم الحبيب فيهتدي لتمييز المعلوم والمجهول»<sup>(1)</sup>  
فأردف ابن رشيد قائلاً: «ولي من كلمة في نحو هذا:

وإن أضع أدبا فالصفح ملتمس إني بقلب من الإعظام ملآن  
من ذا يرى ربع محبوب فيصبر عن لثم وتعفير خد فعل ولهان»<sup>(2)</sup>  
ولمتأمل متفرس في هذه الأبيات أن يتساءل:

ما الفرق بين قول ابن السماط وابن رشيد أسلوبيا، ولمن نحكم بالإصابة في الغرض، وللدقة في اختيار الألفاظ؟  
جوابا على هذا السؤال نقول:

□ أول فرق بين الشاعرين يتمثل في كون ابن السماط قال في أول البيت (وإذا أسأت) في حين قال ابن رشيد (وإن أضع)، والفرق بين إذا وإن كبير جدا، ف (إذا) تفيد التحقق و(إن) تفيد الاحتمال فانظر إلى قوله تعالى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فقد تحقق مجيء الفتح، وانظر في مقابل ذلك إلى قوله سبحانه ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ ف(إن) ولا شك تفيد الاحتمال والظن، فقد يأتي الفاسق وقد لا.

□ ابن السماط استعمل (أسأت) بعد (إذا) وابن رشيد استعمل (أضع) بعد (إن) وفرق كبير بين ظلال الفعلين ومعناهما، فالإساءة فيها من القدحية والقصدية ما ليس في أضع.

□ ابن السماط قال (أدبي) وابن رشيد قال (أدبا) فالأول أضاف الأدب إلى ياء المتكلم الدالة على الشاعر فعرف الأدب بمقتضى الإضافة، وابن رشيد قال (أدبا) من غير إضافته إلى نفسه، فجعله نكرة لإفادة التقليل، والدليل كون قلبه ملآن من الإعظام.

وهذه الملاحظات تدل على حصافة ابن رشيد، وذوقه العالي، وإحساسه المرهف باللغة العربية، وخبرته بأساليبها وألفاظها.

ومما دل على أن ابن رشيد كان كثير التقيب والتقدير والتدقيق والتدنيق والترقيق، حوضه في مقارنة شعره بشعر غيره، خاصة حال العدول إلى التصغير، ليخلص إلى جودة اختياره، وهو وإن كان محقا في هذا الذي سنعرضه إلا إنه في سياقات أخرى كثير الاعتداد بنفسه. فقد ظهر قرن النقد طالعا عند الرحالة عندما نقد شعره الذي نظم لما وافى خليصا فقال:

«وخليص إذا وردنا خلصه فرعى الله أويقات الورود

ومطلع القصيد:

أهل ودي لا تدينوا بالصدود بذمام كان في وادي زرود»<sup>(3)</sup>

ثم يباشر ابن رشيد نقد شعره، لإظهار فضله على غيره، يقول:

«وهذا البيت اتفقت فيه موافقة حسنة في التصغير، كرعت في مورد من الحسن لا تحلاً عنه، وذلك أن الشعراء أكثروا من التصغير في محل، إما لضرورة وزن، أو لقصد ضعيف غير قوي، وربما ندر منهم فيما صدر عنهم ما يستحسن»<sup>(4)</sup>.

ونظرا لشدة تأثره بشيخه أبي الحسن حازم القرطاجني الذي أخذ عنه «وتتلمذ عليه، وشرح له بعض كتبه حتى صار كل ما يتمثله من المسائل البلاغية أو النقدية مستوحى من أفكاره»، فإنه يستدل برأيه

ثراء الخطاب النقدي وتنوعه في النص المرحلي لابن رشيد السبتي

في هذا الموضوع حيث يقول: «كان أبو الطيب المتنبى مولعا بالتصغير، ولم يوفق من ذلك إلا في قوله:

ظلمت بين أصحابي أكفكه وظل يسفح بين العذر والعذل

فحسن هذا لما كان الموطن مظنة لقلّة الصحب، فكثيرا ما يستعملون ذكر الخليلين في هذا الموضوع»<sup>(6)</sup>.

ثم يعود ابن رشيد وقد استرشد منهج شيخه في النقد، ليزاوج بين الوظيفتين، فهو المبدع والناقد في الآن نفسه، يقول: «قلت ووجه حسن البيت الذي أنشدته من طريقتين:

أحدهما: المناسبة اللفظية، فإن خليصا مصغر وأويقات كذلك، والمناسبة اللفظية مما تعتبر...

الثاني وهو أقرب للحظ المعنوي، وهو أن أوقات السرور توصف بالقصر»<sup>(7)</sup>.

لقد تمثل ابن رشيد النقد في بداياته الأولى في الجاهلية وفي صدر الإسلام، لذلك فحديثه عن توظيف الشعراء للتصغير يذكرنا بواقعة هجاء النجاشي بني العجلان، وقد كان من ضمن ما هجاهم به قوله:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقد كان للتصغير في (قبيلة) وظيفة دلالية كبرى تتم عن هجاء مر شديد، فهم الضعفاء ولا طاقة لهم بأن يدافعوا عن أنفسهم، بله أن يعتدوا على غيرهم، ولا نشك في كون عمر، رضي الله تعالى، عنه قد فاته شيء من هذا المعنى ولكنه كان يسعى لإطفاء نار التصارع، ومحو آثار الأحقاد والضغائن، والدليل أن عمر لما سأل حسانا، رضي الله عنه، قال: لم يهجهم ولكن سلح عليهم<sup>(2)</sup>.

ومما قدح فيه ابن رشيد زناد فكره فاستخرج درر البلاغة وأصدافها ما حكاه قائلا «أجرى أبو القاسم بن زيتون يوما معي في قوله تعالى:

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فقال كيف جاء الظلام ولم يقل ظالم، ولا يلزم من نفي الكثير نفي القليل بخلاف العكس؟! ثم أجاب الشيخ رضى الله عنه بأن قال: إن الله تعالى لا ينسب إليه من الظلم لا قليل ولا كثير، ولكن جرت عادة العرب أن لا ينفى عن عظمائها إلا ما يصح نسبته إليها... فيقولون على هذا الأسلوب الملك ليس بظلام، ولا يقولون ليس بظالم، لأنه لو جاز أن ينسب إليه ظلم لم ينسب إليه إلا ما يليق بالملوك الأعظم، فجرى على ذلك جميع كلام العرب، فقلت له: يشهد بصحة ما قلتكم ما وقع في كتاب السيرة النبوية» (9).

وفي هذا الشاهد إشارة لطيفة لتعليل ما وقع في أسلوب القرآن من العدول من صيغة إلى أخرى، وقد أكد ابن رشيد ما ورد عن صاحبه أبي القاسم بن زيتون.

ويؤكد هذا الحقيقة البلاغية من خلال شاهد آخر يمدح فيه عامر الخصفي هاشم بن حرملة الملك: (مشطور الرجز)

أحيا أباه هاشم بن حرملة

ترى الملوك عنده مغربلة

فلم يعجبه فقال:

يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له

فقال الملك: الآن، فأعجبه لما سمع البيت الأخير .

فانظر كيف لم يرضه من المدح إلا كونه بالغا في الغدر والظلم إلى أقصى نهاياته، فقتل من لا ذنب له. وقد أعجب هاشم هذا البيت» (10).

ومضى ابن رشيد يمثل الأمثلة ويعرض ما استحضره من جيد التصغير، مبينا مواطن الجمال فيه إن كانت، حيناً وناقداً وموضحا مواطن الضعف والتكلف حيناً آخر. ولا يخفى على ذي النظر الحصيف

ما في هذه اللمسات النقدية من مكنة واقتدار، وكيف لاومحمد بن مبارك، - وهو الأديب الأريب - يقول فيه «لم أكن مبدي السهى مع القمر، ولا مهدي الأصداف إلى الدرر، ولكن لجفن المعارف وهو النافذ إغضاء، ولشخص العوارف وهو الناقد إرضاء»<sup>(11)</sup>.

ومن الأدلة على نقده، اطراحه لبعض الأبيات وقبوله للآخر، كما صنع النقاد المتقدمون في اختيارهم للسبع الطوال، أو تخيرهم للست الجياد<sup>(12)</sup>، وذلك صنيعه مع أبي البركات، حيث قال «أنشدني الشيخ أبو البركات لنفسه، قال صنعتها في النوم واستيقظت من النوم وأدعني تسيل، فقيدتها في الحين»<sup>(13)</sup>...

ثم قال ابن رشيد: «أسقطت منها بيتين كانا فاسدي القافية، وهما الثاني والثالث، وبيتا ثالثا لضعفه وهو آخرها»<sup>(14)</sup>. فسبب إسقاط البيتين يعود إلى معرفة ابن رشيد بعلم العروض، فقد ذكر له صاحب أزهار الرياض كتابا موسوما بـ «وصل القوادم بالخوافي في ذكر أمثلة القوافي»<sup>(15)</sup>.

ومن لمساته النقدية التي جاء فيها بما هو ألد للعيون من الوسن نقده للفقهاء أبي محمد بن المبارك حين قال:

وروض جنينا للنفوس ارتياضها به وأمرنا كل هم ذهابه  
نعمنا بمرأى منه أسضر عن سنا وإن كان شحا أطال انتقابه  
ودوح كسائه الغيث خضراء سندس وأبدى بياض الزهر فيه عجابه  
كأن سماء زهرها الزهر إنما بها لم يخف شيطان لهوي شبابه

وهذا البيت الأخير فيه تأخر وتكلف، ولو قال فحاكت سما لكان أقرب وأعرب، وكذلك قوله: وروض جنينا، لو قال جلبنا كان أشبه وأوجه، ولكن الارتجال يعذر فيه من قصر في المجال»<sup>(16)</sup>.

ذكرنا صنيع ابن رشيد بما كان عليه النقد في العصر الجاهلي، حيث كان عبارة عن شواهد وأخبار تبرز الخطرات النقدية عند

الجاهليين، نذكر من ذلك ما رواه أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى لما أنشد حسان النابغة قصيدته التى منها:

لنا الجففات الغريل معن بالضحى وأسيافنا يقطن من نجدة دما  
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما  
فقال له النابغة أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت  
بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك<sup>(17)</sup>...

لقد كان النقد مركزا حول استعمال لفظ بدل آخر، موجهها له باستعمال الجفان عوض الجففات والبيض بدل الفر.

وكذلك الأمر في صدر الدعوة الإسلامية، ولنا أن نمثل بالشاهد الذي استنشد فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كعب بن مالك الأنصاري فأنشد:

ألا هل أتى غسان عنا ودوننا من الأرض خرق غوله متمتع  
مجالدنا عن جذمنا كل فخمة مدربة فيها القوانس تلمع  
فقال عليه السلام: لا تقل عن جذمنا وقل عن ديننا، فكان كعب يقرأ كذلك ويقول: ما أعان رسول الله أحدا في شعره غيري<sup>(18)</sup>.

ومن الشواهد الدالة على سعة اطلاعه على علوم العربية، وحسه النقدي نذكر شاهدا جاء فيه: «أنشدنا أبو عبد الله بن حيان قال: أنشدنا أبو المطرف بن عميرة المخزومي لنفسه:

فضل الجمال على الكمال بوجهه والحق لا يخفى على من وسطه  
فبطرفه سقم وسحر قد أتى مستظها بهما على ما استتبطه  
عجباله برهانه بشروطه معه فما مقصوده بالسفسطه  
قلت: أنشدت هذه الأبيات يوما بغرناطة... صاحبنا ذا الوزارتين...

فسأل مني ذو الوزارتين أن أقيد له عليهما شيئا، فكتبت ما تيسر، مما هو أمس بالبيان من الطريقة التي سلك هذان الرجلان<sup>(19)</sup> (يقصد

ابن سهيل الخزرجي وأبو عبد الله محمد بن الرماح) من إمعانها في قواعد منطقية لا تمس الحاجة إليها في الموضوع، معرضين عن معانيها من المقصد الشعري الذي تخيل فيه الناظم ما تخيله. فوقف على ذلك صاحبنا الفقيه الجليل عبد الله الأنصاري... فاستحسن ذلك»<sup>(20)</sup>.

المهم عندنا من هذا الشاهد أمور:

□ مكانة ابن رشيد في نظر ذي الوزارتين، فيما يتصل بالشعر ونقده، فلو لم يكن على علم بسعة اطلاعه ما كان ليطلب منه أن يقيد له عليها شيئاً بعد أن أشده تلك الآبيات.

□ قول ابن رشيد: فكتبت له ما تيسر مما له علاقة بالبيان، دليل على سعة علمه بهذا العلم والذي يعتبر أساساً لعلم البلاغة، فقد «كان كثيراً ما يتدخل لحسم النزاع بين المتناظرين، وذلك كلما شبت معركة خلافية في مسألة من المسائل الأدبية أو اللغوية أو البلاغية»<sup>(21)</sup> وليس ذلك غريباً على عالم بالبلاغة وعلومها وكارع في عيونها وينابيعها<sup>(22)</sup>.

وها هو ابن خلدون يؤكد إلمام ابن رشيد بعلوم اللغة العربية قائلاً: «ولما كان ابن رشيد ذا بصر بالعلوم الشرعية، فإنه يتقن أيضاً تلك الأصناف التي تتقدمها من علوم اللغة والنحو والصرف والبيان والآداب»<sup>(23)</sup>.

□ انتقاده للطريقة التي سلكها الرجلان من إمعانها في المنطق، معتبراً ذلك نظماً وليس شعراً، إذ ليس يقوم إلا على الوزن، أما مقومات الشعر فغائبة.

□ استحسان ابن عبد الله الأنصاري لما كتبه ابن رشيد.

ومما أبان عن تفاعل ابن رشيد بما يسمع من الشعر، تعقيبه على آبيات أنشدها أبو المطرف لنفسه، جاء في الشاهد: «أنشدنا الكاتب الأوحى حبر البلغاء وبحر الأدباء أبو المطرف لنفسه:

عمرنا نادي المولى نادي عطاياه فتأتينا عجالا  
 وأنفدنا السؤال وجوها في تدفقه فعلمنا سؤالا  
 أمنا أن يمل نداه لكن على أمالنا خفنا الملالا  
 «وهذا من الطراز العالي والبز الغالي، وما أحسن هذا التخيل في  
 قصة الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولا»<sup>(24)</sup>.

وفضلا عن تذوقه الشعر وحفظه له، وجدناه عارفا للشعراء، فليس  
 يختلط عليه أمرهم، فينسب الشعر لغير قائله، دليلنا في ذلك تصحيحه  
 لأبي البركات التميمي نسبة أبيات لغير قائلها، يقول الشاهد: «أنشدني  
 في أوائل أيام لقائي له، وحكى وقال:

حضرت في متززه مرسية مع الزاهد أبي العباس بن مكنون عام  
 636هـ فرأى اهتزاز أغصان أشجار وتمايلها فقال مرتجلا:

حارت عقول الناس في إبداعها ألسكرها أم شكرها تتأود؟!  
 فيقول أرباب البطالة تنثني ويقول أرباب الحقيقة تسجد  
 قال الشيخ أبو البركات فقلت له: ما الذي يدل على أنها في وصف  
 الثمار؟ فقال لي: وطئ أنت لهما، قال فقلت وأنشدها لنا:

يا من أتى متنزها في روضة أزهارها من حسننها تتوقد  
 انظر إلى الأشجار في دوحاتها والريح تنسف والطيور تغرد  
 فترى الغصون تمايلت أطرافها وترى الطيور على الغصون تعربد

هكذا أنشدنا مقاله، ونسب البيتين الأولين لأبي العباس بن مكنون  
 الزاهد، رحمه الله، وهو وإن كان من أهل الأدب، وربما نظم اليسير،  
 فإنما أنشد هذين البيتين متمثلا، فظن الشيخ أبو البركات أنهما له،  
 ولذلك قال: إنه قالهما مرتجلا، وإنما هما لأبي زيد الفازازي في قصيد  
 بديع فريد في نزول المطر، مطلعها:

نعم الإله بشكره تتقيد فالله يشكر في النوال ويحمد  
 مدت إليه أكفنا محتاجة فأنالها من جوده ما تعهد»<sup>(25)</sup>

جمع لنا هذا الشاهد أمورا:

□ شدة حفظ ابن رشيد وقوة ضبطه، وهذا ليس غريبا عن محدث، مادام الحفظ ضروريا له، ولارتباط علم الحديث بعلم الرجال، وما كان لابن رشيد أن يند عنه أمر النسبة ذلك.

□ علمه بالقصيدة التي أخذت منها الأبيات التي نسبها أبو البركات لأبي العباس بن مكنون، وتصحيحه له بنسبتها لصاحبها أبي زيد الفازازي، وإنشاده نتفة من مطلعها استدلالا على صحة ما يقول.

ومن طريف ما وقع لابن رشيد في رحلته، قصته مع أبي بكر بن حبيش والتي تدل على تمكن ابن رشيد من الآداب، وقدرته على الخوض في العباب، ومبارزته لذوي البصائر والألباب، يقول «لقيته بمنزله... وصادفته بحالة مرض من وثنء في رجله عرض، وعنده جملة من العواد من الصدور الأمجاد، فأدنى وقرب، وسهل ورحب، وتفاوض أولئك الصدور في فنون الأدب كأنها الشذور، إلى أن خاضوا في الأحاجي واستضاءوا بأنوار أفكارهم في تلك الدياجي، فخضت معهم في الحديث، وأنشدتهم بيتين كنت صنعتهما وأنا حديث السن، لقصة بلغتني عن أبي الحسن سهل بن مالك، رحمه الله... وكان الشيخ أبو بكر على فراشه، فزحف على ما به من ألم إلى محبرة وطرس وقلم، وكتب البيتين بخطه وقال للحاضرين ارووا هذين البيتين عن قائلهما، وأشار إلي، فقلت - وقد قضيت العجب - ومن أين علمكم بهذا؟ ولعلي ما ذكرتهما إلا ساعتى هذه، فقال: علمت ذلكم بما علم به الحسن بن هانئ لمخاطبه العباس بن ناصح»<sup>(26)</sup>.

لنا في هذا الشاهد إفادات نذكر منها:

□ خوضه مع صدور الأدب دليل على أنه مثلهم.

□ صناعته للشعر منذ حدثان سنه.

□ حفظه للروايات الأدبية.

□ شدة إعجاب الشيخ بشعر ابن رشيد، جعله يسعى زحفاً لكتابته وإن كان المرض قد أقعده، ويدعو الحاضرين لحفظه وروايته عن قائله، □ نباهة الشيخ ومعرفته بأن ما أنشداهم ابن رشيد هو له.

ومن شأن من كان ثاقب النظر، حديد البصر، أن يدقق في اللغة تدقيقاً، والنماذج على تدقيقات ابن رشيد كثيرة، فقد دقق في أسماء الأماكن مثل ما فعل في الإل (27) وفي بصرى (28) وفي كداء، حيث تظهر لنا مكانة ابن رشيد، وعلو كعبه في تحقيق الألفاظ ذات العلاقة بعلم الحديث، يقول محققاً: «وكان دخولنا من كداء من الثنية العليا... وكداء هذه هي بفتح الكاف ممدودة، وكدى بضم الكاف منونة ومقصورة بأسفل مكة. وهاتان اللفظتان يضطرب المحدثون في ضبطهما في الأحاديث الصحيحة في الأمهات. والذي صح عندنا في ذلك ما يشهد له الاختبار، ما ذكره الإمام أبو عمرو بن الصلاح، رحمه الله، وهو تحرير بليغ في الموضوع، قال، رحمه الله:

«المستحب عندنا أن يدخل مكة من ثنية كداء بفتح الكاف والمد... وإذا خرج من مكة فليخرج من ثنية كدى بضم الكاف والقصر والتنوين... وأما كدى مصغر بضم الكاف وفتح الدال وتشديد الياء فإنها لمن خرج من مكة إلى اليمن» (29).

إن ابن رشيد من خلال رحلته أبان عن اقتدار كبير، وعلى ما كان يروي عن شيوخه، إلا أنه كان مدققاً في كل ما يأخذه عنهم، ومحصصاً لرواياتهم «فلم يكن يكتفي بإيرادها فحسب، وإنما كان يعقب على أغلبها بالشرح والإيضاح والمقارنة بين بعض المذاهب وذلك على طريقة ابن رشد في كتابه بداية المجتهد» (30).

وفي تدقيق معنى تبوك رجع إلى أصلها اللغوي، مورداً «أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم جاء في غزوة تبوك، وهم ييكونون حسيها

ثراء الخطاب النقدي وتنوعه في النص المرحلي لابن رشيد السبتي

بقدر، فقال ما زلتهم تبكونها بعد؟ فسميت تبوك «ومعنى تبوكون تدخلون فيه السهم وتحركونه ليخرج ماؤه»<sup>(31)</sup>.

ومما أبان فيه الرحالة كذلك عن حس لغوي، تصويبه لما ورد في بيت طفيل لما قال:

يـزرن إلا لا يـنـحبن غيره بكل ملب أشعث الرأس محرم  
فعلق قائلًا:

«كذا وقع ينحبن مجود الضبط على إصلاح في نسخة عتيقة تولى عنايتها أبو عبد الله بن أبي الخصال والضبط بخطه، وأراه وهما، وأن الصواب ينحبن.

والتحنيب الانحناء والاعوجاج، وهو بمعنى ينحبن بالجيم ومصدره التحنيب وهو الانحناء... وأما التحنيب فلا أعرف له معنى يتجه هنا»<sup>(32)</sup>.

## 2 - نقد الديني:

أ) النقد الاجتماعي (نقد البدع والضلالات):

أسمينا هذا النوع نقدا دينيا لأنه وثيق الصلة بأمور الدين، حيث إن ابن رشيد كان كثيرا ما ينتبه إلى ما يعتري تدين العامة من جهالات جهلاء وضلالات عمياء، فكان لا يستكف عن ردها وتوجيه قارئ المتن إلى الصواب، ولا غرابة في ذلك فقد جمع الرحالة بضاعة من الدين وفيرة سواء من الحديث وهو المبرز فيه، أو علوم القرآن وهو جواب السؤال ومدار الاشتغال، لذلك كان ابن رشيد أهلا لممارسة النقد في ما له علاقة بالتدين، ووجدناه يستنكر البدع ويرد الضلالات على أصحابها، كما فعل في رد البدعة العظيمة التي أحدثها العامة في دخول البيت المعظم، يقول: «قد عاينا بعضها، وعلمنا ما لم نعاين، وقد فسر ذلك الإمام أبو عمرو بن الصلاح فقال: وقد ابتدع من قريب بعض

الفجرة الختالين في الكعبة المكرمة أمرين باطلين عظم ضررهما على العامة:

أحدهما ما يذكرونه في العروة الوثقى، وأوقعوا في قلوب العامة أن من ناله بيده، فقد استمسك بالعروة الوثقى، فأحوجوهم إلى أن يقاسوا إليها شدة وعبئاً، ويركب بعضهم فوق بعض، وربما وضعوا الأنثى فوق الذكر، ولامست الرجال ولا مسوها، فلحقتهم بذلك أنواع من الضرر دينا ودنيا.

الثاني مسمار في وسط البيت فسموه سرّة الدنيا على ذلك الموضوع، وحملوا العامة على أن يكشف أحدهم على سرته وينبطح بها حتى يكون واضعاً سرته على سرّة الدنيا، قاتل الله واضع ذلك ومختلقه وهو المستعاد»<sup>(33)</sup>.

من خلال هذا الشاهد نسجل بعض الملاحظات:

- يذكر ابن رشيد في معرض حديثه عن البدع أنه عاين بعضها، وهذا دليل على انتشار البدع في زمانه.
- علمه ببدع أخرى غير التي عاين، ومصدر علمه مذكور باسمه في النص وهو الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله.
- إن البدع المتحدث عنها في هذا النص مرتبطة بالركن الخامس وهو الحج.
- ترتب مفسد عظيمة على هذه البدع في الدين والدنيا، وهذا دليل على غياب الرقابة الدينية وإرشاد الحجاج، أو على الأقل ضعف فاعليتها على مستوى توعية الحجاج بما هو سنة وما هو بدعة.
- وارتباطاً بموسم الحج يورد ابن رشيد تشبيهاً آخر لعالم جليل هو جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب الفقيه المالكي الذي انتقد ما يقع في ليلة عرفات بالجبل القائم في وسطها والمعروف بالإل، مما ابتدعته العامة

من إيقاد الشموع، والتأم الشتيت في المجموع، فقال رحمه الله واصفا بعضا من تلك البدع: «ومنها إيقادهم النيران عليه ليلة عرفة، واهتمامهم لذلك باستصحاب الشمع له من بلادهم، واختلاط النساء بالرجال في ذلك صعودا وهبوطا بالشموع المشعلة الكثيرة، وقد تزاحم المرأة الجميلة الموقدة كاشفة عن وجهها، وهذه ضلالة شابها فيها أهل الشرك في مثل ذلك الموقف الجليل، وإنما أحدثوا ذلك من قريب حين انقرض أكابر العلماء العاملين الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر»<sup>(34)</sup>.

وهذا الذي علم من الفقيه المالكي قد نبه ابن رشيد إليه ولكن في صورة مفعمة بالخيال وحسن التصوير قد تزين للقبیح فعلته، وتلمع للجاهل ضلالته، لما أصبغ عليها صاحبنا من حلل التشبيه والمجاز، يقول: «وربما التقى فريق مع فريق فيغص الجبل بالصاعدين والنازلين، وهو يتأجج نارا ويتموج كالبحر زخارا، والطرق إليه بالشموع في وسط عرفات كالسطور المذهبات تتصل من كل الجهات، وأنت إذا نظرت إليه على بعد من الخيمات تراه كشعلة واحدة، وما يطول من الشمع كأنه ألسن متعاضدة، فترى عجا صلدا عاد ذهبا أو صار لهبا»<sup>(35)</sup> ثم سرعان ما يستدرك مستغفرا خوفا من وهم القارئ استحسان الشيخ لما رأى، وإنما هي فقط غواية المجاز، عمدة الإعجاز، ولذة الكتابة حبا في الطرافة والدعابة، يقول «أستغفر الله من هذا المقال وأسأل الصفح عما جرى مما يوهم استحسان هذه الحال، بل هذه الحال من قبیح البدع التي يجب أن يزجر عنها فاعلها ويردع»<sup>(36)</sup>.

ومما وقع من البدع بالوقوف بجبل عرفات ما نقله ابن رشيد عن الإمام أبي عمرو نذكر «أنهم جعلوا الجبل هو الأصل في الوقوف بعرفات، فهم بذكره مشغوفون، وعليه دون باقي بقاعها يحرصون، وذلك خطأ منهم، وإنما أفضلها موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم»<sup>(37)</sup>.

## (ب) النقد الأخلاقي والسلوكي:

عادة ما يكثر الانحراف عند غياب الوازع الدينى، أو عند سوء فهمه، أو غياب القدوة الحسنة، كل هذه العوامل من شأنها أن تخلق انحرافات وانزلاقات سلوكية، وإن تعلق الأمر بسلوكيات الحجاج أنفسهم، فإذا صح أن نعتبر الرشوة مرض العصر، فما وجدناه في رحلة ابن رشيد يؤكد لنا أن هذه البلوى وما يرافقها من الابتزاز والعنف الرمزي كانت حتى في زمانه وهو القرن السابع الهجري، والغريب هو أن الرحالة تعرض لهذا الانحراف السلوكي وهو يرغب في دخول البيت الشريف، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول الرحالة: «وكنت حين القدوم أردت دخول البيت - شرفه الله - فمنعني حجبته إلا بعد إعطاء ما يرضيهم مما يبذل لهم، فكان قد حضرني بعض الشيء مما طببت نفسا بإهدائه لهم، فأبوا قبوله استنزارا منهم له، فرأيت أن لا أعينهم على اتخاذ بيت الله مغرما، وأن لا أشاركهم فيما اتخذه مآثما، فلما حان الرحيل وزمت المطايا، ولم يبق من السفر إلا القليل، كنت فيمن تأخر، فألفيت البيت قد تركوه مفتوحا، فاغتمت دخوله، وأنلت القلب من ذلك سؤله»<sup>(38)</sup>.

وليست الرشوة وحدها يتيمة في تلك البقاع بل ثمة السلب ونهب المتاع لمن تغافل عن السير في الجموع، أو تخلف عن الركب في تلك الربوع.

يكشف لنا ابن رشيد من خلال شهادته حال مكة وقد تنكرت فيها الأمور لأعلامها، واتسع فيها الخرق على الراقع، فقل الوعي بالدين وخفت دور العلماء العاملين فصفا الجو للطفيليين ممن يمرضون المجتمع ويسوء حاله بهم، يقول: «ومما تطوفنا عليه أيضا مسجد إبراهيم إذ كنا قد نزلنا بعرفات من جهة مكة شرفها الله، ثم رحلنا

إلى الموقف الذي كانت الصلاة تجمع فيه قبل أن تغير الأمور، ويضعف الأمر بالمعروف ويخاف الناهي عن المنكر... ولم يتمكن لي النزول في المسجد، وإنما صعدت على حائطه الموالي لعرفة إذ هو الآن دون تسقيف خيفة من سلب أثوابي أو أشد من ذلك، فإن السائب هناك محارب»<sup>(39)</sup>.

وإذا كان ابن رشيد في هذا المقام قد اكتفى بالإشارة إلى تخوفه من السلب فإنه في مقام آخر يكشف ما تعرض له بعض أصحابه من القتل والضياع والسلب، وذلك سر إصراره على الذهاب إلى عرفات بدل المبيت بمنى، استرشادا بخبرة المجريين، يقول: «ولقينا هنالك الشيخ الزاهد الفاضل العامل الفقيه أبا محمد المرجاني نفع الله به، الواصل معنا من تونس في المركب، فصلينا العصر جميعا، وأشار بموافقة الجمهور في التوجه تلك الليلة إلى عرفات والمبيت بها، وتركهم سنة المبيت بمنى لتوقع ما يخاف من الأعراب في أطراف النهار وأعقاب الناس، ويحذر من انتهابهم بما قل من العدد ولم يستصحب شيئا من العدد، ومن تأخر من الناس أو انفرد، وانسلالهم بين تلك الشعاب، وتوغلهم في الجبال بحيث يتعذر الإيجاف عليهم بخيل أو ركاب، فكان العزم على التوجه، وكان رأينا مباركا والحمد لله... وعلى إثرنا انتهب قطاع العرب بعض من تأخر من أهل الركب، وكان منهم لمن دافعهم قتل وسلب وإنا لله وإنا إليه راجعون وحسبنا الله ونعم الوكيل»<sup>(40)</sup>.

ومما انتقده ابن رشيد جهالة الحجاج، وعدم حرصهم على قدسية المكان الذي هم فيه، فلا فرق بينهم وبين البهائم، فإذا كان تلك البقاع هي الأشرف إطلاقا فإن سلامة الفطرة، ونقاء الطبع، وقدرنا من التدين تلزم الحجاج إيلاء المكان قدسيته حرصا منهم على نظافته وطهارته، ولكن هيهات هيهات، فاستمع إلى ابن رشيد والألم يعتصره واصفا ما

حل بذلك المكان الشريف من فضلات البهائم الأدمية قائلاً: «والذي ظهر من الحكمة الشرعية في مبيت الناس بمنى وإقامة الصلاة بمسجد إبراهيم ثم المجيء إلى الموقف أن يصل الناس وتلك الأمكنة المطهرة طاهرة، ولم يبق إلا التشاغل بالذكر والدعاء، وأما الآن فتصبح تلك العرصات المشرفات وقد ملئت فضلات آدميات وبهيميات، وإن شئت قل في الجميع بهيميات.

ولقد جهدنا أنفسنا أن نجد موضعاً للصلاة طاهراً فما وجدناه، إلا أن يصل على حائل يوضع على الأرض حتى على الصخرات المباركات ولا حول ولا قوة إلا بالله»<sup>(41)</sup>.

وعلى الذي ذكرناه فليس كل آراء ابن رشيد وشهاداته انتقاداً لاسعاً لسلوك الأعراب بمكة وجحافل الحجاج، بل وجدناه يشيد بسلوك أبناء مكة، كصنيعه في هذه الشهادة حيث يقول: «فتلقانا أهل مكة وأطفالها متعلقين بالناس، ليعلموهم المناسك، ويهدوهم المسالك، قد درب صبيانهم على ذلك وحفظوا من الأدعية والأذكار ما يحسن هنالك»<sup>(42)</sup>.

وتلك سنة الله في الخلق فالناس أختيار وأشرار، صالحون وطالحون، فإذا مر بنا في شهادة خلت سلب القطاع للحجاج وتسلمهم بين الشعب، فإن الله سبحانه في مقابل ذلك سخر لهم صبية وجعلهم بمثابة الأصحاب، ليهدوهم المسالك ويخففوا عنهم الأتعاب، والله في خلقه شؤون.

فإذا كان ما سبق من أهل مدينة الجلال فمثله صدر من أهل مدينة الجمال، أبناء المدينة المنورة الذين قال عنهم ابن رشيد «تلقانا أهل المدينة على ساكنها الصلاة والسلام مبشرين بالوصول إلى حضرة المصطفى الرسول، وجالبيين من تمر المدينة ما يتحفون به القادمين ملتسمين رفدهم، وقد صنعوا عصيا في أطرافها أوعية صغار، فيجعلون

فيه شيئاً من التمر، ويناولونه أهل القباب المسترة من بين ستورها، فيعطي كل واحد ما تيسر له من الرغد، ويدفعون إلى الركبان والمشيان أيضاً من ذلك على حكم التحفة والهدية فيحسن كل على قدر وجده، ويقسمه الناس بينهم متبركين مستبشرين، وقد رأيتهم يحنكون به الأطفال التماساً للبركة وحق لهم ذلك»<sup>(43)</sup>.

ومن العادات الحسنة التي تظهرها هذه الشهادة في سلوك أهل المدينة:

□ الكرم.

□ الحشمة والوقار.

□ تقديم المساعدة للحجاج.

□ تقديم الهدايا لهم.

□ تبرك الحجاج بعطايا أهل المدينة.

ولم يكن ابن رشيد ينتقد الحجاج في تدينهم إلا لعلم بالفقه، ولتعليل التوجه الفقهي عند ابن رشيد أجدي مضطراً لعرض بعض الشواهد:

منها قوله: «فطفنا بالبيت طواف القدوم... فدخل معي المطاف رفيقي الوزير أبو عبد الله الذي فاز دوني بمزية البدار، وحظي بحظ من الجوار، فقال لي منبها ومفيدا: إن بعض شيوخنا قال لي إنه تستحب تلاوة القرآن في الطواف عند نزول المطر لما يرتجى من اجتماع البركات التي وردت في ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا﴾ [آل عمران: 96] وقوله: ﴿كتاب أنزلناه مباركا﴾ [الأنعام: 92] وقوله: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا﴾ [ق: 9] فامتثلت ذلك، رجاء نعمة المنعم المالك»<sup>(44)</sup>.

وليس امتثال ابن رشيد لجهله بل طلبا والتماسا لاجتماع البركات، لذلك أردف قائلا: «وقراءة القرآن لا تقدم على الأذكار المأثورة في هذا المحل، وإن كان أفضل منها، إذ من القواعد أن لا يشغل عن معنى ذكر من الأذكار بمعنى غيره من الأذكار، وإن كان أفضل منه أنه سوء أدب، ولكل مقام مقال يليق به ولا يتعداه»<sup>(45)</sup> ثم يشرع في بسط آراء العلماء واختلافاتهم حول قراءة القرآن في الطواف، يقول: «وقد ورد من الأذكار في القرآن ما يقال بين الركنين اليمانيين ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ وبهذه الآية عقب على الأذكار فكان أولى»<sup>(46)</sup>.

ولقد كان يقصد إلى بيان مذهبه المالكي وإن كان على اطلاع بالمذاهب الأخرى خاصة من خلال جلوسه إلى مشايخ كبار في رحلته الحجية، مثال ذلك قوله: «وأهلنا بحجة مفردة لم نضف إليها قرانا ولا تمتعا على ما اختاره إمام المدينة مالك، ورآه أتم الأعمال وأحسن المسالك»<sup>(47)</sup>.

وها هي التفاتة فقهية أخرى تظهر علمه بالأحكام الشرعية في تأدية بعض مناسك الحج، يقول: «صلينا الصبح بذلك المحل الكريم، راجين فضله العميم، وودعناه وما ودعناه، وأودعناه الأرواح وسرنا بالأشباح، والضلوع تنقد والدموع تطرد... فوافينا ذا الحليفة وهي موضع إحرام المدنيين وجوبا، ومن اجتاز من غيرهم ندبا»<sup>(48)</sup>.

### على سبيل الختم:

تعتبر رحلة ابن رشيد السبتي موردا خصبا ومنهلا واسع الحياض كثير الورد، جمع فيه علوما كثيرة وفوائد غزيرة، فللباحث المنقر فضل متعة وخير رتعة، وهو واجد فيها ولا شك ما شغل باله وهيج بلباله، فقد جمع فيها العجائب والغرائب ما تقف دونه الخواطر، وأتى من ذلك

بالسحب المواطر، وقد يجد القارئ نفسه من العشق عجلاً يمشي على استحياء، ومن الإعجاب خجلاً يلف رأسه من حياء، لما عرض له ابن رشيد من العلوم الغزار والفوائد الأبار. وليس ذلك بعزيز على من تتلمذ على المشايخ الكبار - أخص منهم - حبر العلماء وسراج الأدباء حازم القرطاجني الذي فتق فيه قريحة النقد من أكمامها، فجاء بنقود غاية في الدقة في علوم هو أحد أعلامها، فمن النقد الأدبي إلى النقد الديني إلى النقد الاجتماعي والسلوكي، وفي جل ذلك وجدناه مبرزاً على نقيصة تعتريه، وهي اعتداده بذاته في بعض المواطن.

وليس ذلك ينقص من قيمة الرجل شيئاً إذ الكمال لله جل في علاه، فقد أفدنا من رحلته كثيراً على ما ضاع من أجزائها لما فيها من كثرة الأخبار والنصوص مما جعل منها «مصدراً مهما يشبه إلى حد ما يتيمة الدهر للشعالبي أو الذخيرة لابن بسام»<sup>(49)</sup>.

نرجو أن نكون قد جمعنا في هذه الورقة البحثية بعضاً من جوانب الحس النقدي لابن رشيد، والذي أبان عن موسوعية كبيرة تأتي له بعض منها برحلاته التي سعى من خلالها إلى طلب مزيد كمال في العلم بلقاء المشايخ وذلك شأن المتقدمين من السلف، شنشنة أعرفها من أخزم.

## الهوامش

- (1) ملء العيبة ج 5، ص 18.
- (2) نفسه
- (4) ملء العيبة ج 5، ص 18.
- (4) ملء العيبة ج 5، ص 18.
- (5) رحلة ابن رشيد السبتي دراسة وتحليل الدكتور أحمد حدادي منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب 2003، ج 1، ص 157.
- (6) ملء العيبة ج 5، ص 18.
- (7) نفسه ص 7.
- (8) الشعر والشعراء، ابن قتيبة دار الثقافة بيروت 1980، ج 1، ص 247-248 وينظر العمدة في محاسن الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد مصر (دت) ج 1، ص 52.
- (9) رحلة ابن رشيد السبتي ج 1، ص 97.
- (10) نفسه.
- (11) ملء العيبة ج 2، ص 392.
- (12) إشارة إلى قول الشاعر:
- أذود القوافي عني زيادا      زياد غلام جريء جوادا  
فلما كثرن وعيننه      تخير منهن ستا جيادا
- (13) ملء العيبة ج 2، ص 256.
- (14) ملء العيبة ج 2، ص 256.
- (15) أزهار الرياض ج 2، ص 350.
- (16) ملء العيبة ج 2، ص 387.
- (17) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء القاهرة 1385هـ ص 55 وينظر كذلك نقد الشعر، قدامة بن جعفر تحقيق كمال مصطفى مصر 1963، ص 63-64.
- (18) الأغاني، الأصفهاني دار الثقافة ج 16، ص 170.
- (19) ينظر ملء العيبة ج 2، ص 203-204. وقد تصرفنا في النص لطوله واقتصرنا على الأفيد.

- (20) ملء العيبة ج 2، ص 204.
- (21) رحلة ابن رشيد السبتي دراسة وتحليل الدكتور أحمد حدادي ج 2، ص 630.
- (22) لابن رشيد عدة مؤلفات في علوم البلاغة نذكر منها: «أحكام التأسيس في أحكام التجنيس» وإيراد المرتع المرعب لرائد التسجيع والترصيع» وهو الإضاءات والإنارات في البديع، وله أيضا في علم البيان «حكم الاستعارة» ينظر أزهار الرياض ج 2، ص 350 والإعلام للمراكشي ج 3، ص 352 وينظر كذلك بغية الوعاة ص 85 والوافي بالوفيات ج 4، ص 284.
- (23) ينظر مقدمة ابن خلدون ص 436.
- (24) ملء العيبة ج 2، ص 195.
- (25) نفسه ج 2، ص 254.
- (26) ملء العيبة ج 2، ص 84-85. وتتمة القصة قوله في ص 86 «ثم حكى أن العباس بن ناصح لما رحل إلى المشرق لقي الحسن بن هانئ، فسلم عليه ولم يعرفه نفسه. لكنه عرفه أو عرف أنه من أهل الأندلس فأقبل الحسن يسأله عن شعراء الأندلس شاعرا شاعرا، ويسأله عن كل واحد أحي أم ميت، وينشده أشعارهم فيجيبه عن استفسره، وينشده ما حضره، إلى أن سأله عن العباس بن ناصح فقال هو حي، فقال هل تذكر شيئا من شعره؟ فقال نعم، فاستنشدته فأنشده: فأدت الغريض ومن ذا فأد (المتقارب) قال فلم يسمع منه غير هذا المصراع ونزل عن مرتبته، وقام إليه وعانقه، وقال: أنت والله العباس بن ناصح فقال نعم ولكن بم استدلت علي؟ فقال إني لما كنت أسألك عن غيرك كنت تجيبني مستريحا من غير خجل، فلما سألتك عن نفسك رأيت عندك خجلا، فلما استنشدتك فأنشدت وضع لي ذلك.
- فقلت للشيوخ، هو كما ذكرتم، وعجبت من حسن تهديه، وغريب هذا الاتفاق وما وقع له مع أبي نواس الحسن بن هانئ من الوفاق».
- (27) ملء العيبة ج 5، ص 89-94.
- (28) ملء العيبة ج 5، ص 20.
- (29) ملء العيبة ج 5، ص 81-82.
- (30) رحلة ابن رشيد السبتي دراسة وتحليل الدكتور أحمد حدادي ج 1، ص 127.
- (31) ملء العيبة ج 5، ص 9.
- (32) ملء العيبة ج 5، ص 90-91.
- (33) ملء العيبة ج 5، ص 264-265.
- (34) ملء العيبة ج 5، ص 87-88.

- (35) ملء العيبة ج 5، ص 87-88.
- (36) نفسه.
- (37) ملء العيبة ج 5، ص 95.
- (38) ملء العيبة ج 5، ص 264.
- (39) ملء العيبة ج 5، ص 96.
- (40) نفسه ج 5، ص 87.
- (41) ملء العيبة ج 5، ص 95.
- (42) ملء العيبة ج 5، ص 80.
- (43) نفسه ج 5، ص 16.
- (44) ملء العيبة ج 5، ص 84-85.
- (45) نفسه 85.
- (46) ينظر ملء العيبة ج 5، ص 84-85.
- (47) ملء العيبة ج 5، ص 73.
- (48) نفسه، ص 71.
- (49) رحلة ابن رشيد السبتي دراسة وتحليل الدكتور أحمد حدادي ج 1، ص 134.